المبحث الأول: ترجمة الإمام البخاري رحمه الله

اسمه ونسبه ونسبته وكنيته: هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة[١] الجعفي[٢] البخاري أبوعبد الله[٣].

مولده: ولد يوم الجمعة في شهر شوال سنة أربع وتسعين ومائة[٤]،نص البخاري أنه وجد تاريخ مولده بخط أبيه[٥]

نشأته وبدئه لطلب العلم: توفي أبوه وهو صغير، ونشأ يتيما في حجر أمه، ويسر الله عليها تربيته الكريمة ونشأته العلمية بالاستعانة من مال أبيه المتروكة له الذي قال فيه عند موته: لَا أعلم من مَالِي درهما من حرَام وَلَا درهما من شُبْهَة[٦] وبدأ بطلب العلم في صغره قال أبو جعفر محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي: قلت لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث؟ قَالَ: ألهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب قَالَ: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقَالَ: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت اختلف إلى الداخلي وغيره فقال له بعض أصحابه: ابن كم كنت إذ رددت عليه؟ فقال: ابن إحدى عشرة فلما طعنت في ست عشرة سنة، حفظت كتب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء[٧].

رحلته لطلب العلم والحديث ونبوغه فيه:

---

(١) قال ابن ناصر الدين: هُوَ بِفَتْح الْمُوَحدَة وَسُكُون الرَّاء وَكسر الدَّال الْمُهْملَة تَلِيهَا زَاي سَاكِنة ثمَّ مُوَحدَة مَفْتُوحَة ثمَّ هَاء وَهَذَا أحد الْأَقْوَال فِيهِ وقيدته عَن بعض المتقنين: بذدزبه بذال مُعْجمَة بدل الرَّاء.اهـ معناه بالعربية: الزراع

انظر: توضيح المشتبه (١/ ٤٤٠) الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب (١/ ٢٥٨)

(٢) قال السمعاني في الأنساب(٣/ ٢٩١) "قيل له –أي للبخاري- الجعفي لولائه إلى الجعفيين فان المغيرة كان مجوسيا أسلم على يدي يمان الجعفي جد عبد الله بن محمد المسندي.."

(٣) انظر: الثقات لابن حبان (٩/ ١١٣) و سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٣٩١)

(٤) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٣٩٢)

(٥) هدي الساري (١/ ٤٧٧)

(٦) هدي الساري (١/ ٤٧٩)

(٧) انظر: تاريخ بغداد ت بشار (٢/ ٣٢٤) و طبقات الحفاظ للسيوطي (ص: ٢٥٢)

بعدما تعلم الإمام البخاري عن علماء بلده وتحصل من غزير علمهم ودرس عليهم قصد الرحلة كعادة المحدثين إلى بلدان تواجد المحدثين فيها وكان أول خروجه مع أمه وأخيه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج والبقاء فيه لطلب الحديث، قال رحمه الله: "خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما حججت رجع أخي بها تخلفت بها في طلب الحديث"[١]، ثم طاف البلاد وأخذ علم الحديث رواية ودراية من كبار عصره

قال ابن الملقن رحمه الله: كتب - رضي الله عنه - بخراسان، والجبال، والعراق، والحجاز، والشام، ومصر، عن أبي نعيم، والفريابي، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وخلق يزيدون عَلَى ألف"[٢]

قال الإمام البخاري نفسه: "كتبت عن ألف وثمانين رجلا، ليس فيهم إلا صاحب حديث، كانوا يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص[٣]"

وقد اشتهر البخاري بالفقه، واعترف له بالاجتهاد، حتى قال نعيم بن حماد ويعقوب بن إبراهيم الدورقي: «مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ البُخَارِيُّ: فَقِيهُ هَذِهِ الأُمَّةِ»[٤]، ولقبه شيخه محمد بن بشار: «بسَيِّدُ الفُقَهَاءِ»[٥]

قال أحمد بن سيار: ومحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، أبو عبد الله طلب العلم، وجالس الناس، ورحل في الحديث، ومهر فيه وأبصر، وكان حسن المعرفة، حسن الحفظ، وكان يتفقه[٦].

اعترف الكبار على سعة اطلاعه وغزارة علمه وهو في عز شبابه ويظهر ذلك جليا من قوله أيضا حيث قال: "فلما طعنت في ثمان عشرة جعلت أصنف قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وصنفت كتاب التاريخ إذ ذاك عند قبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الليالي المقمرة، وَقَالَ: قل اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة، إلا أني كرهت تطويل الكتاب"[٧]

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٢/ ٣٢٥)

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢/ ٤٦)

(٣) سير أعلام النبلاء ط الرسالة (١٢/ ٣٩٥

(٤) انظر: تاريخ بغداد (٢/٣٤٢-و٣٤٤)

(٥) انظر: تاريخ بغداد (٢/٣٣٦).

(٦) انظر: تاريخ بغداد (٢/٣٢٤).

(٧) تاريخ بغداد ت بشار (٢/ ٣٢٥)

ثناء العلماء عليه:

قال الإمام النووي: "واعلم أن وصف البخاري رضي الله عنه بارتفاع المحل والتقدم في هذا العلم على الأماثل والأقران متفق عليه فيما تأخر وتقدم من الأزمان، ويكفي في فضله أن معظم من أثنى عليه ونشر مناقبه شيوخه الأعلام المبرزون، والحذاق المتقنون[١]".

هنا اكتفي بذكر بعض أقوال الأئمة الكبار الدالّة على مناقبه الجليلة ومكانته الرفيعة عندهم.

قال فتح بن نوح النيسابوري: "أتيت علي بن المديني، فرأيت محمد بن إسماعيل جالسا عن يمنيه، وكان إذا حدث التفت إليه كأنه يهابه"[٢]

قلت: هذا حال الإمام المبجل مع تلميذه البخاري الذي قال فيه البخاري نفسه: "مَا استصغرت نَفسِي عِنْد أحد إِلَّا عِنْد عَليّ بن الْمَدِينِيّ[٣]

وقال عمرو بن علي: "حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث"[٤].

قال أحمد بن حنبل: "انتهى الحفظ إلى أربعة من أهل خراسان: أبو زرعة الرازي، ومحمد بن إسماعيل البخاري، وعبد الله بن عبد الرحمن بن السمرقندي، والحسن بن شجاع البلخي"[٥]

قال الإمام الترمذي: "ولم أر أحدا بالعراق ولا بخراسان في معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل"[٦].

قال عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي: "قد رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراقيين، فما رأيت فيهم أجمع من أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري"[٧]

---

(١) ما تمس إليه حاجة القارئ (ص٢٩)

(٢) تاريخ بغداد (٣٣٨/٢)

(٣) التعديل والتجريح , لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح (٣/ ٩٦٢)

(٤) تاريخ بغداد (٣٣٨/٢)

(٥) التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد (ص: ٣٠٩)

(٦) تاريخ بغداد (٣٣٨/٢) وتهذيب الأسماء واللغات (١/ ٧٠)

(٧) تاريخ بغداد (٣٥٠/٢-٣٤٩)

محنته مع الإمام محمد بن يحيى الذهلي في مسألة اللفظ:

من سنة الله على عباده أنه يبتليهم حسب إيمانهم وتقواهم فيكتب الله القبول في الدنيا لمن صبر وتحمل وأجزل له الثواب الجزيل في الآخرة

فالإمام البخاري رحمه الله مع جلالة قدره وغزارة علمه امتحن في آخر حياته بمسألة اللفظ بالقرآن، قد أدرك زمن "فتنة خلق القرآن" فكان من أشدّ الناس تحرّيا في اختيار الكلمات وأورع الناس فيه حتى لا يحمل كلامه من في قبله مرض غير محمله[١] فيوقع الفتن بين الناس ولما نزل -رحمه الله- نيسابور حث الإمام الذهلي الناس على حضور مجالسه والاستفادة من علومه الجمة

فازدحم النَّاس على مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل حَتَّى امْتَلَأت الدَّار والسطوح[٢]

قال أبو أحمد بن عدي ذكر لي جماعة من المشايخ أن محمد بن إسماعيل لما ورد نيسابور واجتمع الناس عنده حسده بعض شيوخ الوقت – يعني محمد بن يحيى- فقال لأصحاب الحديث أن محمد بن إسماعيل يقول لفظي بالقرآن مخلوق فلما حضر المجلس قام إليه رجل فقال يا أبا عبد الله ما تقول في اللفظ بالقرآن مخلوق هو أو غير مخلوق؟ فأعرض عنه البخاري، ولم يجبه ثلاثا، فألح عليه. فقال البخاري: "القرآن كلام الله غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة" فشغب الرجل، وقال قد قال لفظي بالقرآن مخلوق"[٣]

قال ابن المنير الجذامي محللا ما وقع بينهما: "كَانَ مُحَمَّد هَذَا من جملَة مشايخه-أي البخاري-، ومتعيناً فِي عصره، مُتَقَدما بِالسِّنِّ، ومتخصصاً بِالْفَضْلِ، وانتصاباً للإفادة، واشتهاراً زَائِدا على الْعَادة، وأمراً مُطَاعًا حَقًّا مراعاً. وَاقْتضى لَهُ مَجْمُوع هَذِه الْأَحْوَال أَن ظهر على البُخَارِيّ، وَعبر فِي وَجه وجاهته، ووكر فِي اعْتِقَاد الْخلق صفو نزاهته، إِلَى أَن نَادَى عَلَيْهِ أَن لَا يجلس أحد إِلَيْهِ"[٤]

وقال أبو حامد بن الشرقي سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، ولا يجالس ولا يكلم ومن

---

(١) كما فعل به

(٢) فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٩٠)

(٣) المصدر نفسه

(٤) المتواري على أبواب البخاري (ص: ٤٤)

ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل فاتهموه، فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه".

وقال الحاكم: ولما وقع بين البخاري وبين الذهلي في مسألة اللفظ انقطع الناس عن البخاري إلا مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة"[١]

في هذا الوضع الحرج اضطرّ البخاري على الخروج من نيسابور إلى مكان مأمون وملائم لنشر العلم فتيمم نحو بلده البخارى، ولما وصل المدينة استقبله الناس أي استقبال ونثروا عليه الدنانير، ومكث أياما حتى وصلت الرسالة المرسلة من الإمام الذهلي إلى والي بخارى يحذر فيها عن الإمام البخاري وما يعتقده -حسب فهمه هو- اطمئن الأمير إلى ما كتب عنه وقرر إخراجه من بلده وهو -رحمه الله- نفي من البلد الذي نشأ فيه وترعرع ثم استوطن خرتنك قريبا من سمرقند ودعا الله بقوله "اللهم إنه قد ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت فاقبضني إليك،" فما تم الشهر حتى مات عند بعض أقاربه"[٢]

وأما موقفه في اللفظ فقد بين رحمه الله موقفه بعبارة واضحة من غير إبهام ولا شبهة

قال محمد بن نصر سمعته يقول: "من زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب فإني لم أقله" فقلت له يا أبا عبد الله: قد خاض الناس في هذا فأكثروا، فقال: ليس إلا ما أقول لك[٣]"

قال أبو عمرو الخفاف فأتيت البخاري فذاكرته بشيء من الحديث حتى طابت نفسه، فقلت يا أبا عبد الله: ها هنا من يحكي عنك إنك تقول لفظي بالقرآن مخلوق؟،

قال: يا أبا عمرو احفظ ما أقول لك: من زعم من أهل نيسابور، وقومس، والري، وهمذان، وحلوان، وبغداد، والكوفة، والمدينة، ومكة، والبصرة، أني قلت: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كذاب فإني لم أقل هذه المقالة إلا أني قلت: أفعال العباد مخلوقة[٤].

---

(١) تاريخ بغداد (٢/٣٥٤)

(٢) مصدر نفسه (٢/٣٥٧)

(٣) فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٩١)

(٤) تاريخ بغداد (٢/٣٥٤)

قَالَ أبو عبد الله: وسمعت عبيد الله بن سعيد، يقول: سمعت يحيى بن سعيد، يقول: ما زلت أسمع أصحابنا، يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة. قَالَ أبو عبد الله البخاري: حركاتهم وأصواتهم، واكسابهم، وكتابتهم، مخلوقة. فأما القرآن المتلو المبين المثبت في المصاحف المسطور المكتوب الموعى في القلوب، فهو كلام الله ليس بخلق، قَالَ الله تعالى: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}[1].

قال الفربري، سمعت البخاري يقول: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوق فهو كافر

وقال الحاكم سمعت أبا الوليد حسان بن محمد الفقيه يقول سمعت محمد بن نعيم يقول سألت محمد بن إسماعيل لما وقع في شأنه ما وقع عن الإيمان؟ فقال: قول وعمل ويزيد وينقص والقرآن كلام الله غير مخلوق وأفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي على هذا حييت وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله تعالى[2]

مؤلفاته:

لقد أتحف رحمه الله للمكتبة الإسلامية وطلاب العلم كتبا قيمة نافعة لن يستغني عنها علماء الأمة وعوامها ومن أشهرها وعلى رأسها الجامع الصحيح يأتي ذكره في مبحث مستقل ومن كتبه الأخرى

١. الأدب المفرد
٢. خلق أفعال العباد
٣. القراءة خلف الإمام
٤. رفع اليدين في الصلاة
٥. الجامع الكبير
٦. المسند الكبير
٧. التفسير الكبير

---

(١) تاريخ بغداد ت بشار (٢/ ٣٥٣)

(٢) فتح الباري (٤٩١/١)

٨. بر الوالدين
٩. كتاب الأشربة
١٠. الفوائد
١١. كتاب الهبة
١٢. المبسوط
١٣. التاريخ الكبير
١٤. التاريخ الأوسط
١٥. التاريخ الصغير
١٦. أسامي الصحابة
١٧. الضعفاء الصغير
١٨. كتاب الكنى
١٩. كتاب الوحدان
٢٠. كتاب العلل
٢١. الكبير في معجم الصحابة [١]

وفاته:

قال أبو أحمد بن عدي الحافظ الجرجاني، سمعت عبد القدوس بن عبد الجبار السمرقندي، يقول: جاء محمد بن إسماعيل إلى خرتنك، قرية من قرى سمرقند، على فرسخين منها وكان له بها أقرباء فنزل عندهم، قَالَ: فسمعته ليلة من الليالي وقد فرغ من صلاة الليل يدعو ويقول في دعائه: اللهم إنه قد ضاقت علىّ الأرض بما رحبت فاقبضني إليك، قَالَ: فما تم الشهر حتى قبضه الله تعالى وقبره بخرتنك[٢].

مات رحمه الله ليلة الفطر أول ليلة من شوال سنة ست وخمسين ومائتين،[٣] عاش اثنتين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوما[٤].

---

(١) هدي الساري (٤٩١/١) والإمام البخاري وكتابه الجامع الصحيح (ص: ٣٥)
(٢) تاريخ بغداد ت بشار (٢/ ٣٥٧)
(٣) تاريخ نيسابور (ص: ٢٩)
(٤) تاريخ بغداد ت بشار (٢/ ٣٢٤)